وكنت أريد قتلها

عن الانجليزية

بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدي

« نسمع هذه الأيام الحديث عن قتل الشفقة وهناك فريق من الناس ينشرون الدعوة لهذا النوع من القتل ، ولكن هل كان لأى إنسان فى أي وقت أن يتولى ما هو من حق الله وحده ؟ هنا قصة مثيرة عن أم كادت تحت حكم الاغراء القاسى أن تقتل ابنتها ولكن ... »

* * *

بينما كنت أعد الدواء لابنتى الطفلة خطرت لى على حين فجأة فكرة القتل للشفقة

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء وكان اليوم مطيراً قابضاً ، وكان الطبيب قد أمرنى أن أسقى طفلتى فى الساعة الخامسة من مساء كل يوم عشر قطرات من الدواء الذى وصفه لها ، ونزولاً على هذا الأمر تناولت الزجاجة وشرعت أعد القطرات التى أسبها منها فى الملعقة

« واحدة ... اثنتان ... ثلاث ... »

على هذه الحال كل مساء فى الساعة الخامسة ويجب أن أستمر على ذلك الأسابيع والأشهر والسنوات ، كل ذلك لأبقى على الأنفاس الضعيفة التى يرددها صدر طفلة مشوهة كسيحة — إنها لحياة مظلمة أشبه بهذا اليوم المطير القابض وهى مثله محرومة من ضياء الشمس

تحت تأثير هذا التفكير المظلم وبينما أنا أعد قطرات الدواء وقفت يدى وبقيت جامدة لا تتحرك ، فقد خطرت لى فكرة ملتهبة سريعة أشبه بضوء البرق الخاطف ومثله فى بساطته . لنفرض أننى أخطأت فى عد قطرات الدواء المتبرى واستمر السائل ينصب فى الملعقة حتى يغمرها ، أو لنفرض أننى تناولت عن خطأ غير مقصود زجاجة أخرى تشبه فى منظرها زجاجة الدواء ، ولكنها تحتوى مادة سامة . أليس ذلك ما يحدث بعض الأحيان فتنشر الصحف خبره تحت عنوان : « أم تخطئ فتتناول السم بدل الدواء ، ويؤدى خطأها إلى قتل طفلتها »

بمثل هذه السهولة يمكن أن ينتهى كل شىء ! أيعد ذلك جريمة ؟ لا ! فما أنا إن فعلت إلا مؤدية واجباً تحتمه الشفقة الإنسانية إذ أنقذ طفلة مشوهة كسيحة عديمة الحول من حمل حياة مقضى عليها بالشقاء والتعاسة ! فما يخرج عملى عن أنه القتل باسم الرحمة والشفقة !

وإذ تدور هذه الأفكار فى رأسى يدب فى أذنى صوت ابنى ينادينى من الطابق الأرضى : « أماه ! أأنت فى الطابق الثانى ؟ » . وابنى كريستوف طفل فى السادسة من عمره قوى البنية قوى الصوت

فأجبته فى صوت آلى :

— نعم يا كريستوف

وبهذه الكلمات المسموعة مرت النوبة الجنونية التى أغرتنى فى صوت غير مسموع بارتكاب جريمة القتل . فعدت إلى الدواء أعد القطرات التى أفرغها منه فى الملعقة فى عناية وحذر . وذهبت والدواء

فى يدى إلى مهد الطفلة فنظرت إلى وجهها الشاحب المجرد من كل معنى

أهذه هى طفلتى ! هذه القطعة العاجزة التى تنبض بها الحياة ، كتلة مشوهة من الجسم الملتوى . هذه هى طفلتى !

لقد أصدرت أعلى الهيئات الطبية قرارها النهائى فى أمر هذه الطفلة العاجزة وهو :

« أنها لن تستطيع المشى يا مستر شلتون ، ولن تكون أبداً طفلة طبيعية »

وما زال نذير هذا القرار يزعجنى ويقض مضجعى وعبثاً بكيت هذا الحظ التعس . وكنت أسأل القدرة الإلهية فى صمت : لم هذا ؟ لقد كان طفلاى الآخران مثلين جميلين للصحة الكاملة . كان كريستوف صبياً طبيعياً عنيداً . وكانت لولا صبية جميلة محبوبة فى الرابعة من عمرها ، فلم نزل هذا المصاب بالطفلة الثالثة ؟ لماذا ؟ أليس ثمت من علاج ، أما هناك من أمل ؟

لقد كان الجواب القاطع على هذا التساؤل : أن لا أمل على الإطلاق ... فليس فى قدرة أى مخلوق أن يعمل شيئاً حيال هذا المصاب . عندئذ طرأ لخاطرى ذلك الحل الذى يلح بارتكاب جريمة القتل ، القتل الرحيم الذى يخلص الفتاة من شقائها ويخلصنى من آلامى .

لا يكلفنى هذا الحل إلا أن أزيد بعض قطرات من الدواء على القدر المعين ، أو أن أخطئ فى تناول الزجاجة الثانية !

وسمعت فى الطابق الأول باباً يفتح ، ثم يغلق فى غير عناية . فيدل ذلك على أن كريستوف و(لولا) قد انتهيا من لعبهما خارج البيت . ولم يلبث الجو الداخلى أن ملىء بضحكاتهما وصخبهما ؛ ثم سمعت صوتاً مألوفاً لى هو صوت مفتاح الباب الخارجى ، وخطوات زوجى السريعة وصوته الطروب يدعونى :

— أأنت فى الطابق الثانى يا آن ؟

فأجبته :

— سأنزل بعد دقائق قليلة يا فيليب !

ثم أحكمت غطاء الطفلة وسويت وسائدها ، وكانت يداى مضطربتين . ثم هبطت إلى الطابق الأول ، وبعد فترة وجيزة جلسنا إلى مائدة العشاء ، واشتغل كريستوف ولولا بحديث لعبهما ، وشرع فيليب يحدثنى عن حوادث اليوم ويعلق على الأخبار الرياضية ... لقد كنا دائماً مثالاً وسطاً للأسرة العادية المتمتعة بنعمة الصحة التامة . بل لعلنا كنا فوق المثل العادى كما كنا شديدى النشاط . فقد كان الناس يقولون عنى وعن فيليب إننا نتقدم دائماً إلى الأمام ، لا نبالى شيئاً ، وكنا نضحك من هذا الكلام ولا نندم على شىء !

لقد نشأت أنا وفيليب معاً ، ثم غدونا متحابين ، وكنا نشترك فى الرحلات الخلوية ، وفى جماعات السباحة ، والألعاب الرياضية ، وكنا نركب السكك الحديدية الجبلية الملتوية ، وفى المنحنيات الخطرة يتعلق كل منا بالآخر ضاحكين مستبشرين ، وكنا أكثر من أى رفيقين غيرنا اندفاعاً فى الرياضة واللعب ، والرقص ، ثم ابتاع فيليب سيارته فكان يسرع بها أكثر من غيره من الرفاق .

وكان رفاقنا يطلبون منه دائماً أن يكون أشد حذراً فى قيادة السيارة ، فكان فيليب يضحك ويقول :

« بحذر ! سنعرف الحذر بعد مائة سنة ، أما الآن فإننا نمتع أنفسنا بأقصى ما نستطيع »

وإنى لأسأل نفسى دائماً ماذا كنا نفعل لو أننا

اطلعنا فى تلك الأيام السعيدة على ما يخبىء لنا المستقبل.

وقد نشأ كريستوف ولدنا الأول شبه والده فى جسمه القوى وفى تفوقه السريع فى الألعاب الرياضية ، وكانت (لولا) المجعدة الشعر أصغر من أخيها بعامين شديدة الحرص على مجاراته فى حركاته .

وكان فيليب يعمل موظفاً فى محل تجارى ولم يكن يربح كثيراً ولكننا نعيش عيشة حسنة جداً ، وكانت دارنا بسيطة فى مظهرها ولكنها كانت مريحة وكانت من النوع الذى يلائم حياتنا الطروب المرحة

وكان انتظارنا طفلاً ثالثاً أمراً يدعونا إلى التفكير فى الاقتصاد على أننا لم نكترث لهذا الأمر .

فقد رحب فيليب بالخبر ترحيباً قلبياً وقال :

— هـذا حسن جداً وسنرتب أنفسنا بحيث نوسع مكاناً للغريب الصغير

ودعيت أنا وفيليب إلى إحدى الحفلات ، وكان ميزان الحرارة ثابتاً على خط الجليد ، وكانت الشوارع مغطاة بالثلج فحذرتنى مسز فيرجسون جارتى من الخروج فى تلك الليلة قائلة : « إنك حامل يا مسز شيلتون ويجب عليك أن تحترسى »

فضحكت وقلت : إننى لا أحب أن أكون من العميدات يستدفئن على الكراسى

فقالت السيدة :

— ولكن فى مثل هذا الجو ...

فقاطعتها قائلة :

— إنه طقس جميل جداً وأنا أحب البرد . وأنت ما رأيك فى نفسك يا فيليب ؟

فقال مبتسماً :

— إن هذا الجو يناسبنى جداً ، وأنا لا أشكو أبداً من الشتاء

وذهبت أنا وفيليب إلى الحفلة فى سيارتنا وكانت سيارتان أخريان قد تقدمتانا ، فقال فيليب :

— فلنسرع لنلحق بهما

فقلت مبتهجة :

— نعم لنلحق بهما ولنتقدمهما

ولم تمض فترة قصيرة حتى رأينا السيارتين المتقدمتين ثم أدركناهما فصاح فيليب ونحن نمر بهما ونتركهما وراءنا :

— انظرى ما تثيره سيارتنا فى الجو من غبار

ثم قال فخوراً :

— إنى أراهن على أننا سنصل قبلهما بوقت طويل وسنـ . . .

وفجأة انزلقت السيارة على الجليد واضطربت حركتها ثم دوى الجو بصوت صدمة قوية

وأصيب فيليب برضوض خفيفة أما أنا فلم يظهر أننى قد أصبت بأى أذى ، وقلت لفيليب مؤكدة :

— كن واثقاً أننى لم أشعر إلا برجة خفيفة وبشىء من الخوف وليس هناك ما يدعو إلى الاهتمام

ولكن فيليب كان شديد الخوف شديد الندم وكان يقول من حين إلى حين :

— لا أستطيع أن أسامح نفسى يا آن ، لقد كان جنوناً مطلقاً منى أن أعرض نفسك لخطر القيادة السريعة الطائشة لغير داع إلا أننى كنت أريد مجرد التظاهر ... لا أستطيع أن أسامح نفسى .

فكنت أحاول أن أخفف من أثر الحادث فأقول :

— ليس فيما حدث ما يدعو إلى الندم مطلقاً ،

فكل إنسان معرض للحوادث الطارئة ؛ فلا يزعجك هذا الأمر .

وعندما ولدت ابنتنا كنت قد نسيت الحادث نسياناً تاماً ، وكان أول ما شعرت به بعد الوضع أن هناك شيئاً غير طبيعي ، وجاءني هذا الشعور من أن المرضة كانت ترفض باستمرار أن تربي الطفل الجديد

وقد كان فيليب هو الذي أجابني عندما فتحت عيني وسألت عن المولود . فقال لي :

— إنها نائمة

وكان فيليب جالساً إلى جانبي وكنت لا أزال تحت تأثير المخدر فلم ألاحظ أن هناك شيئاً غير طبيعي ، وقلت :

— إذن هي فتاة

فهز فيليب رأسه إيجاباً

فقلت :

— إذن ليكن اسمها جانيت

ولم ألبث أن وقفت تدريجاً وفي تأن على الحقيقة ، فقد أخبروني أول الأمر أن الطفلة مريضة قليلاً ، ثم قالوا بعد ذلك إنها قد نقلت إلى مصحة خاصة لتكون تحت إشراف بعض الاختصاصيين . فلما عادت إلى قواي علمت الحقيقة . لقد ولدت الطفلة مشوهة ، وجلست يوماً في مكتب طبيب اختصاصي كبير في أمراض الأطفال فسمعت رأيه الأخير في قوله :

— إنها لن تستطيع أن تمشي ولن تكون أبداً فتاة طبيعية

على أنني لم ألبث مع الزمن أن استسلمت للواقع . ولكن فيليب ما زال متألماً يلوم نفسه ويعنفها ألف مرة ومرة ، وقد أصبح رجلاً مقهوراً معذباً ، وكان ذلك من الأسباب التي زادت الحمل الملقى على عاتقي فقد كنت أحب زوجي حباً شديداً ، وكان تأله يدمي قلبي ، وأصبح الهيكل الصغير المحزن الراقد في المهد شبحاً عابساً مخيفاً ملأ البيت صمتاً وتجهماً . وأثقل نفس فيليب ونفسي ، وخيل إلي أن لا أمل هناك في تغيير هذه الحال إلى أن كان ذلك المساء المطير المقبض وخطرت لي فكرة التخلص في سهولة من حياة الطفلة ، فكانت هذه الفكرة هي الحل الوحيد للمشكلة التي اعترضت طريق حياتنا

ولازمتني هذه الفكرة ملازمة غريبة . فقد كنت أتبع أوامر الطبيب في دقة وحذر شديدين ، وإذا خرجت أنا وفيليب من البيت لأمر ما تركنا في غرفة الصغيرة من يلازمها ويعنى بها ، وإذا هي بكت في المساء أسرعت عند سماع صيحتها الأولى فتركت فراشي وحنوت عليها أنظر ما بها . وعلى الرغم من ذلك كانت فكرة القتل للشفقة تملأ رأسي ولا تفارقني ليل نهار . وإذا كنت بين أصحابي أو في غرفة الجلوس مع أفراد أسرتي وجدتني على حين فجأة أفكر في طفلتي المريضة وفي الحل الوحيد الذي يضع حداً لآلامها . وفي بعض الأحيان كان يبدو لي أن هذه الفكرة غير معقولة وخيالية . ولكنني إذا انفردت بالطفلة ورأيت وجهها الصغير المتعب الشاحب وأعضاءها العاجزة المشوهة بدا لي أن فكرة القضاء على هذه الحياة المحزنة فكرة تتفق مع الحق والعدل ، فكانت تستحوذ على جميع مشاعري وتدفع يدي المضطربتين إلى التنفيذ

وإني لأعلم يقيناً أن ملازمة هذه الفكرة لرأسي لم تكن نتيجة اضطراب نفسي . بل إني لأعترف مخلصة أنني لم أكن واقعة تحت تأثير عصبي ؛ بل

كنت امرأة عملية اتخذت وجهة نظر هادئة واقعية فى موقف تميس . إذ أية فائدة تجنيها ابنتى المريضة المشوهة من الحياة ؟ والحياة على أحسن التقديرات جهاد مر ومنافسة حادة مندفعة لا يفلح فيها غير الأصلح . فلماذا تستطيع أن تفعل فى الحياة فتاة مريضة مشوهة عاجزة ؟! وهل يمكن أن تكون هذه المخلوقة إلا عبئاً على الآخرين تثقل عواتقهم ، دون أن تشترك فى شىء من نعم الحياة ، فهى قعيدة تسترعى الشفقة والعطف . تنتظر انتظاراً موجعاً أن يجيئها الموت وكلما طالت بها الحياة ازدادت آلامها ومتاعبها ؟ أليس من الإنسانية ومما هو أقرب إلى العدل أن يضع الإنسان حداً لهذا الانتظار المؤلم وأن يخلص ذلك الجسم العاجز من السلاسل المتعبة التى تربطه بالحياة المرهقة ؟

مثل هذه الأفكار هى التى كانت تساورنى فأخذت بها نفسى مراً يوماً بعد يوم وأنا أفكر فى الجريمة التى لا إثم فيها ، الجريمة التى لن تكون إلا عملاً من أعمال الشفقة والرحمة . ولم يكن الكتمان من طبيعتى فكان فيليب دائماً موضع سرى ، أفضى إليه بكل مشكلة تواجهنى وبكل قضية حيوية أفكر فيها . ولكننى لم أجسر أن أحدث زوجى بهذه المسألة الجديدة المتصلة بقضية الحياة والموت

وفى ذات مرة عرضت لهذا الموضوع عرضاً غير مباشر إذ قلت :

— إنى لأشعر أحياناً أنه كان خيراً لطفلتنا لو أنها ماتت . إذ أية فائدة هنالك من إطالة حياة مريضة كهذه ؟

فنظر فيليب إلى نظرة عطف وإشفاق وقال :

— إنه لفظيع يا آن أن تعيشى مقيدة بملازمة طفلة مشوهة عاجزة وأنت المملوءة حياة وقوة

قلت :

— إن مخاوفى ليست من أجل نفسى ولكن من أجلها .

فقال :

— لم أقل لك من قبل يا آن إننى كثيراً ما ذهبت إلى المستشفيات ومصحات الأطفال لأبحث عما إذا كان هناك كشف حديث يفيد فى علاجها ، ولكننى لم أعثر على شىء من هذا القبيل ، ومن المحتمل أننا لو كنا أغنياء ...

فقاطعته فى شىء من العبوس :

هذا هو الموضوع ، فلو أننا على الأقل كنا أغنياء لاستطعنا أن نحيطها بأسباب العناية ... وإنى لأفكر دائماً فى المستقبل : مستقبلها هى ...

فتنهد زوجى وقال :

— وكذلك أنا ... ولكن ليس هناك ما يمكن عمله .

ولقد وددت لو قلت له :

— هناك شىء أستطيع أن أعمله ، ولسوف أعمله يوماً ما

ولكن هذه الكلمات لم تخرج من بين شفتى

نعم سيأتى اليوم الذى فيه أعمل هذا العمل ، وقد خيل إلىّ أحياناً أن هذا اليوم قد دنا ، وذلك عندما كانت تمرض الفتاة وتبكى وتئن أنيناً موجعاً مستمراً . ففى مثل هذه الحالات كنت وأنا أغسل الطفلة العاجزة وأسمع أنينها أشعر بأن الخيط الفاصل بين الفكرة والتنفيذ قد أصبح دقيقاً جداً ، وعلى الرغم من ذلك بقى هذا الخيط الدقيق الفاصل قائماً وكان بعض الأحيان أقوى ، فى منع يدى من العمل ،

من جميع الآراء التي تساورني ومن العزيمة التي تدفعني إلى التنفيذ

وبلغت جانيت السنة الثانية من عمرها ، وكان نموها الطبيعي بطيئاً جداً . كذلك خيل إليّ أنها لا تنمو مطلقاً من الناحية العقلية ، فلم يبد منها أي دليل على الذكاء مثل الذي بدا من كريستوف ولولا حتى في السنة الأولى من حياتهما . فقد كانت الطفلة كتلة مشوهة من الحياة لها عينان لا معنى في نظراتهما ووجه لا يستطيع أن يتبين فيه الإنسان أي أثر من آثار الحيوية ولها أعضاء عاجزة معدومة النفع . . . فهي مجموعة فيها حياة تدعو إلى الشفقة الممزوجة بالألم . وحتى ولداي الصغيران كانا ينظران إليها بين الرأفة والحنو

وكان من النادر أن يقترب كريستوف ولولا من أختهما ، وإذ كانا يشعران بأن كل شيء حولها غير عادي فقد كانا يمران بالغرفة على أطراف أصابعهما ويلقيان عليها نظرة عطف خاطفة ثم يسرعان إلى حيث يلعبان .

وفي ذات مساء تركت الطفلين وحدهما في البيت فترة قصيرة من الوقت ، فلما عدت وجدت كريستوف في الطابق العلوي وعند ما سمع حركة دخولي إلى البيت صاح بي :

— أنا هنا مع جانيت . لقد كانت تبكي فهززت مهدها فسكتت .

واستمر الطفل يرقص في غرفة أخته المريضة ، ثم صاح مبتهجاً على حين فجأة يقول :

— أسرعي يا أمي بالصعود ، وتعالي انظري ، إنها تبتسم يا أمي

وإذ دخلت الغرفة أشار إلى أخته وقال : (أنظري)

وحقاً رأيت لأول مرة دلائل الانتباه بادية على وجه الطفلة . فكانت محدقة في كريستوف وعلى فمها ابتسامة هي أولى ابتسامات الطفولة العذبة وكان كريستوف مبتهجاً فكان يتقلب في الهواء ويحرك أذنيه ويديه حركات بهلوانية ، وكانت عينا الطفلة الصغيرة تتبعان حركاته والابتسامة ملازمة فمها

وقد أسرت هذه الابتسامة قلب كريستوف ، وأصبحت ملاعبة جانيت أهم تسلياته من ذلك اليوم وكان يقول لي في كبرياء :

« أنظري كيف أجعلها على الابتسام »

ثم تضيء عيناه ببريق الانتصار ويبدأ سلسلة من ألعابه البهلوانية ويقول :

« أنا الوحيد الذي يستطيع أن يضحكها »

وأصبحت جانيت من ذلك التاريخ في حماية كريستوف فإذا هي بكت لاعبها في أناة وفي غير ضجر حتى يرضيها ، وإن هي امتنعت عن تناول الدواء أو الطعام استطاع أن يحملها على تناولها ، وكان يقول مفاخراً :

« إنني أستطيع أن أجعلها تعمل أي شيء أريده »

والواقع أن جانيت كانت تطيع كريستوف في كل ما يأمرها به

وكان يحضر لها اللعب وعرائس من الورق وقطعاً من السكر الخالص فإذا عاد من المدرسة دخل مباشرة إلى غرفتها وقال :

« إليك يا جانيت أنظري ما أحضرته لك »

وكان يسره أن يشرح لها فائدة كل لعبة من هذه اللعب ويقول لي في لهجة التوكيد :

« إنها تفهم ، تفهم كل شيء أقوله لها »

ولقد شعرت ، حيال ما رأيت من عناية

كريستوف بأخته وإخلاصه لها ، بالخجل من موقفى منها ، ولكن عقيدتى فى أن الموت كان خيراً لها من الحياة ما زالت متمكنة من نفسى

وكان الأصدقاء يسألوننى فى عجلة من باب أداء الواجب :

« كيف حال الطفلة ؟ »

فكان جوابى القصير :

— على ما كانت عليه

وكنت أزيد على ذلك فى سرى :

— وستبقى على ذلك دائماً قعيدة عاجزة

وبلغت جانيت السنة الثالثة قبل أن تنطق بكلمة واحدة وكانت أول كلمة نطقت بها وأول اسم ذكرته هو « كريستوف »

فازداد كريستوف كبرياء وقال :

— أنظرى كيف أعلمها الكلام ، قولى ياجانيت ما هو اسمى ؟

فتكرر الطفلة قولها :

— كريستوف !

وإذا نطقت بهذا الاسم أشرق وجهها وأبرقت عيناها

هذه هى العلامات التدريجية البطيئة التى كانت تنم عن التقدم الطبيعى فى حالة الطفلة . ولكن المحنة بقيت على حالها ، وكنت آخذها معى فى الطريق للتروض فترقد فى عربتها كتلة جامدة هادئة ، وكنت كلما نظرت إليها تولانى الخوف من مستقبلها . كنت أسائل نفسى ماذا يكون إذا هى كبرت وأدركت أنها ليست مثل غيرها من الفتيات ؟

وكان الناس يتمتمون إذا ما رأوها :

— مسكينة هذه النفس الصغيرة !

وكنت أردد صدى هذه الكلمات متنهدة تنهداً عميقاً . نعم مسكينة هذه النفس الصغيرة التعيسة ، لماذا خرجت إلى هذا العالم ؟ ولأى غرض كان مجيئك ؟

على أننى لم ألبث أن تلقيت الجواب سريعاً على هذا السؤال

أحيينا أنا وفيليب أمسية أحد أيام السبت . وكان الجو دافئاً ، فتعشينا عشاء بارداً فى الحديقة الخلفية وكان ضيوفنا مرحين مبتهجين ، وعند منتصف الليل بلغ الابتهاج غايته ، وإذ لم أكن متعودة كثرة الشرب فقد شعرت بالنشوة بعد كأسين من الكوكتيل . وحوالى منتصف الليل بدأت جانيت تبكى ...

وكنا قد سمحنا لكريستوف ولولا أن يسهرا قليلاً فى هذه الليلة ، وبعد أن انصرفا إلى فراشهما بوقت غير طويل سمعنا بكاء جانيت ، فلم نهتم به أول الأمر ، فقد كان من المألوف أن تستيقظ فتبكى قليلاً ثم تسكت وتعود إلى النوم ، ولكن بكاءها هذه الليلة استمر أكثر من المألوف وازداد ارتفاعاً ، ثم صرخت صرخة موجعة حملتنى على الإسراع إلى داخل البيت وصعود السلم وثباً ، فسمعتها تصيح منادية باسم أخيها : كريستوف ! كريستوف !

وشعر عقلى المضطرب بشىء من الخطر ، ولكننى لم أستطع تبينه ، فأسرعت داخلة إلى غرفة النوم ، وهناك وقفت جامدة من الرعب ، فقد كانت عينا جانيت محدقتين بباب الغرفة التى ينام فيها كريستوف ولولا ، وكان الدخان مندفعاً من ذلك الباب ، فقد كان هناك شىء يلتهب على مقربة من سريرى الطفلين النائمين ، وجلبت صرخاتى المتوالية كل من فى الدار ،

فاستطاعوا اختطاف الصغيرين من وسط الغرفة الملتهبة

فقال فيليب وهو يرتجف :

ماذا كان يحدث لو لم تستيقظ جانيت وتبكى .

إنها الصدفة السعيدة وحدها التي أيقظتها !

ولكننى أنا التي رأيت صورة الجزع مرسومة على وجه الطفلة ومعنى الفزع ينطق من عينيها المحدقتين فى الغرفة الملتهبة ، أنا التى رأيت ذلك أعرف أن صرختها لم تكن مجرد مصادفة . فهى قد أحست بالخطر يدنو من كريستوف ، فصرخت تطلب النجدة إلى أن نجا حبيبها كريستوف من الخطر .

هذا هو الجواب على سؤالى . فإن بعض الذين يقضى عليهم سوء الحظ بالعجز والقعود عن الحركة تبقى أرواحهم حرة طليقة ، وهذه الأرواح تستطيع أن تضطلع ببعض أعمال البطولة والشجاعة ذات الفائدة العظمى . لقد قضى على طفلتنا بأن تحيا حياة المرض والعجز ولكنها أنقذت حياة أخويها

بلغ كريستوف فى عرفان الجميل الذى أولته إياه أخته ، ونشرت الصحف المحلية خبر الحادث ، فأحضر هذه الصحف إلى البيت وأطلع جانيت على الصور وما حولها من تعليق ، وأخذ يشرح لها فى أناة معنى ما كان يقرأه بصوت مرتفع ويقول لى مؤكداً :

— إنها تفهم وهى مدركة أنها قد أنقذت حياتنا ، انظرى إليها كيف يطفح وجهها بالسعادة !

قوى هذا الحادث روابط الصداقة بين كريستوف وجانيت ، فضاعف جهده فى إرضائها والعناية بها وحملها على الابتسام والشعور بالسعادة ، وكان يقضى الساعات فى الغرفة الصغيرة فوق السطح فى صنع اللعب التى يقدمها لها فكان يصنع الكراسى والموائد والأصونة ويعهد إلى لولا بدهانها وتزيينها .

وكانت لولا غير مهتمة أول الأمر بحركات أخيها ، ولكنها لم تلبث بحكم مجاراتها له أن تعمل تحت إشرافه فى مساعدته بصنع العرائس وخياطة الملابس ، وقطع الصور . وكانا فى أثناء عودتهما إلى البيت بعد انصرافهما من المدرسة يلتقطان بعض الأزهار فيجعل كريستوف منها باقة يقدمها إلى جانيت وهو ينحنى أمامها تحيياً فى صورة تمثيلية ظريفة . ولم تكن جانيت لتسر بشىء مثل سرورها بهذه الباقة من الزهر . ولما أدرك الطفلان ذلك كانا يقتصدان كل ما يستطيعان من نقودهما القليلة ليشتريا لها بعض الأزهار من حانوت الزهار إذا لم يجدا شيئاً منها فى طريقهما .

وكما تنمو الزهرة فى حرارة الشمس إذا عنى بأمرها عناية كافية فكذلك كان شأن ابنتى الشاحبة المريضة ، إذ بدأت تنمو وتقوى رويداً وتبدو عليها معالم الحياة . واختفت من وجهها نظرة الخمول ، والغباوة التى كانت تغشيه وحلت محلها عذوبة جذابة وأصبح وجهها الرقيق بما فيه من عينين زرقاوين فتانتين أشبه بصورة رائعة يحيط بها إطار من حلقات الشعر المجعد فلم يكن الإنسان ليملك نفسه من النظر إليه مأخوذاً ، وكان تقوس شفتيها البديع ومظهر الألم البادى فى عينيها الجميلتين مما يبعث العطف إلى قلب الناظر إليها ويملأه حباً لها وحدباً عليها ، وقد طهر هذا المنظر نفسى مما كان يداخلها من الشعور بالمرارة والحنق . وكان ما فى عينيها من معنى الصبر والاحتمال يوحى إلى النفس برسالة سماوية أشعرتنى بالخجل الشديد كلما ذكرت فلسفتى الجاحدة

التي كنت أناجي بها نفسي في أيامها الأولى

* * *

أحسست حيال ذلك بأن نفسي تفيض بعاطفة رقيقة فاترة جددت شبابي الروحي . ولم يغب عني أن ضعف جانيت وضرورة اعتمادها على غيرها هما اللذان حركا عوامل الرحمة والمحبة وكرم المعاملة في نفسي كريستوف ولولا . ولقد كان كريستوف في سنواته الأولى صعب المراس لا يسهل ترويضه وكانت طبيعته صلبة أنانية ، فلم يغب عني الآن أن ابنتنا الصغيرة كان لها الفضل الأكبر في تهذيب هذه الطباع وتحويلها إلى خلق رقيق وديع

ولما التحق كريستوف بالمدرسة الثانوية تحدث إلينا عن مطامحه في لهجة مازحة قصد بها إلى إخفاء ما وراءها من انفعال فقال :

— أريد أن أبحث معكما في أمر يتصل بي وبمستقبلي

فقال أبوه في لهجة ساخرة بعض الشيء :

— أسمعنا قصتك !

فأجاب كريستوف :

— حسن ... لقد فكرت — منذ زمن بعيد — في أنني راغب في أن أكون طبيباً : لأنني ما كنت أتبين حالة جانيت حتى استقر رأيي على أن أصبح يوماً ما طبيباً — وطبيباً ماهراً — وإنني عند ذلك أستطيع أن أشفيها .. فالذي أريد أن أحدثكما فيه هو هذا ... وأنا عالم طبعاً أن ماليتك محدودة يا أبي ولكنني فكرت في أننا نستطيع نحن الثلاثة أن نجد طريقاً ما لتحقيق هذه الغاية »

فأجابه أبوه :

— إذا كنت قد اعتزمت أن تدرس الطب ، فاصمم على عزمك يا بني ، وسنجد طريقاً لنفقات تعليمك . فهناك دائماً طريق مفتوحة لمن يبحث

قال الفتى :

— هذا بديع جداً يا أبي

وهكذا وجهنا جهدنا أنا وفيليب وكريستوف إلى توفير الأسباب التي تمكن كريستوف من درس الطب . فحصل كريستوف على عمل يشتغل به بعد انصرافه من المدرسة ، وكذلك حصل فيليب على عمل إضافي ، أما أنا فوضعت نظاماً جديداً للنفقات المنزلية ، وبذلك حققنا أمنية كريستوف في درس الطب .

وأصبح كريستوف في الثامنة عشرة من عمره على استعداد لدخول مدرسة الطب ، وكان حاد الرغبة في تحصيل العلم حتى لقد أدهشنا أن ينقلب الغلام الشاكس الميال إلى اللعب إلى فتى شديد الانكباب على الدرس ملتهب الرغبة في تحقيق مطامحه العلمية ، وإذا أنت لاحظته عن كثب تبين لك ما في نفسه من إصرار على الوصول إلى هدف وضعه نصب عينيه ولا يريد عنه تحولاً

ولقد قال لي مرة :

— إنه ليصعب علي يا أمي أن أنتظر حتى أصبح طبيباً لأستطيع عمل شيء لجانيت . على أنني مقتنع بأنني قادر على أن أساعد في تخفيف متاعبها ، فلقد كنت دائماً قادراً على أن أعمل لها شيئاً ، فكنت أول من حملها على الابتسام وأول من علمها الكلام ودربها على فهم ما يقع تحت حسها . وسأشفيها !

وكانت جانيت قد بلغت الثانية عشرة عند ما دخل كريستوف مدرسة الطب ، ولما كانت قد ازدادت رقة وضعفاً فقد كانت تضطر أحياناً للبقاء في فراشها

عدة أيام ، وكان كريستوف فى هذه الحال يسهر عليها فى لهفة شديدة . وكان يقول لها مازحاً :

— اسمعى يا زرقاء العينين . إنك لن تبقى مريضة إلى أن أصبح طبيباً . فلقد قضت الظروف بأن أكون طبيبك منذ عهد طويل ، فأنا لا أريد منك أن تناصرى منافسى

فسألته جانيت فى صوتها الرقيق :

— وكم أمامك من الزمن حتى تصبح طبيباً ؟

— عدة سنوات ، ولكنها ليست طويلة بقدر ما يتوهم الإنسان ، فإن الوقت يطير

فابتسمت جانيت وقالت :

— سأجتهد فى أن أبقى قوية إلى ذلك الحين يا كريستوف . وأنت تعلم أننى سأجتهد فى عمل أى شىء يرضيك

فقال أخوها :

— يالك من فتاة طيبة ... وأنا من أجلك سأبذل جهداً مضاعفاً لأنتهى من الدرس على عجل

وإذا كان كريستوف قد أظهر قدرة فائقة فى الدرس وإذا كان قد حصل على درجات أعلى بكثير من درجات رفاقه فإن الفضل فى ذلك لا يعود إلى ذكاء خارق ، ولكن إلى اعتقاده أنه متى أتم درس الطب سيصبح قادراً على تطبيق علمه على حالة أخته ، وإلى خوفه من أن يجىء معرفته وقدرته على شفائها متأخرتين عن الوقت المناسب

وكانت جانيت تسير فى طريق الاضمحلال ، وكنا كلنا نعلم ذلك وقد قال الأطباء إن قلبها لا بد أن يقف فى أى لحظة من اللحظات . وكانت الفتاة تجلس إلى جانبى خاملة ساكتة بينما أعزف لها على البيان أو أقرأ لها قطعة ما بصوت مرتفع ، وكانت تسند رأسها المتثاقل إلى ركبتى . وكان كريستوف وحده هو الذى يستطيع أن يضحكها ويبعث بمعنى السعادة إلى عينيها ، إذ كان لا يزال قادراً على تمثيل بعض الألعاب البهلوانية ، فإذا رآها متعبة أسرع بتمثيل بعض هذه الأدوار . وكانت تقضى النهار كله فى انتظار عودته إلى البيت

أما (لولا) فكانت أشد تحفظاً ، وكان لها كثير من الأصدقاء الذين كانوا يجتمعون فى بيتنا ، وكانوا جميعاً يحبون جانيت ويتحدثون عنها ، ومع ذلك فقد كانت وسط هذا الجمع الطروب تبدو وحيدة متحفظة وقد شعرت بأن جانيت كانت تبغض — على نوع ما — ما يبدون نحوها من شفقتهم الظاهرة . ولم تكن (لولا) ولا أصحابها بأهل لتلك الرفقة البهيجة التى كان يخلقها كريستوف بينه وبين جانيت بأسلوبه الطليق البسيط

وقد نظرت جانيت إلىّ مرة بعد انصراف فريق من أصدقاء « لولا » وقالت :

— لم يشفقون علىّ يا أمى ؟ أذلك لأنى لست كغيرى ؟ إنهم جميعاً ينظرون إلىّ بعين الشفقة .

فقلت فى حيرة :

— قد يظن بعضهم أنك غير سعيدة .

فبدت الحيرة فى عينيها وقالت :

— ولكننى سعيدة ، ولم لا أكون سعيدة ؟ وإنه ليخيل لى أحياناً من الأسلوب الذى يعاملنى به الجميع أننى أميرة صغيرة مدللة .

ثم فكرت قليلاً وعادت فقالت :

— أظن أن هناك نقصاً فى ناحية ما من نواحى حياتى ، ولكن هناك مقابل ذلك أشياء كثيرة

تعوضني من ذلك النقص ، فإني لأعلم ما تحمل لى قلوب الجميع من العطف وأشعر باستعداد الجميع لمساعدتى فى كل ما أريد .

ثم أضافت إلى هذه الكلمات إحدى خطراتها التى تنم عن الفلسفة والشعور الدقيق والتى طالما أدهشتنى بها فقالت :

— إن بعض الناس يقضون حياتهم، وقدتكون طويلة، دون أن يقفوا على مواطن الشفقة والحنان. أما أنا فقد رأيت دائماً الشفقة وروح المساعدة . . . ونعمت بذلك .

فقلت :

— إن تبين ذلك لا يغيب عن الناس ... ولكن فى نفوسهم خوفاً طبيعياً من الضعف ...

فأجابت جانيت فى بساطة :

— أنا لا أشعر مطلقاً بشىء من الخوف ، ولا أفهم معنى الخوف . فإن الشفقة موجودة دائماً فى الحياة ؛ ثم إنى لا أخاف الموت ، وإنى لأعرف أنى لست قوية ، وربما مت قريباً جداً ، ولكننى عندما أفكر فى الموت لا أشعر بشىء من الخوف ، وفكرتى عن الموت أنه نوم مريح غير منقطع .

انقبض صدرى عند سماع هذه الكلمات ، وأحسست بأن الموت غير بعيد عنها. فطوقتها بساعدى فى حركة عصبية لا إرادة لى فيها ، فمال جسمها على جسمى وكان ضعيفاً بارداً . . . وكان عزيزاً علىّ

وبعد أشهر من هذا الحديث كررت قولها :

— لا أحب أن أراك غير سعيدة يا أمى فأنت تعلمين أننى لا أخاف الموت . . .

فحاولت عبثاً أن أحبس الدمع وأن أبتسم وأتشجع فأكون على الأقل فى مثل شجاعة ابنتى الصغيرة . ولكن الموت كان قريباً ، وكنت أفزع من اقترابه

ووقف كريستوف إلى جانبى ، وقد طفحت عيناه بمعنى الألم ، ولكن صوته كان قوياً ، ينم عن الشجاعة وهو يقول لأخته :

— أنظرى إلى يا جانى . . . إنه لا يزال أمامى عامان قبل أن أنتهى من الدرس ، ولقد وعدتنى بأن تبقى قوية إلى ذلك الحين فلتحرصى على وعدك . ويجب أن تتعلق بالحياة أيتها الفتاة الشجاعة .

وكانت جانيت تلفظ أنفاسها الأخيرة وهو يلفظ من خلال الدموع المنهمرة قوله : « يجب أن تتعلق بالحياة أيتها الفتاة الشجاعة »

وصاح كريستوف باسم أخته الحبيبة « جانيت » فتمثل فى هذه الصيحة كل ما حمل قلبه الكسير لصاحبة هذا الاسم المحبوب من الحب والحنان

وحاولت الفتاة المحتضرة أن تفتح جفنيها لتنظر إلى أخيها المحبوب ونطقت باسمه « كريستوف » ومرت على شفتيها ابتسامة سريعة تشبه ابتسامتها الأولى التى أثارت عواطف أخيها الصغير . ثم أطبقت عينيها وتنهدت فى ضعف وسكنت حركتها

فطوقنى كريستوف بساعديه وهو يزفر زفرات شديدة ويقول : « لماذا تموت ؟ لماذا ؟ »

وبعد عامين من موت جانيت أصبح كريستوف الدكتور شلتون ، فما كان أشد فرحنا وافتخارنا بذلك . لقد كانت سعادتنا أكبر من أن يصفها الكلام ، وقد قال فيليب :

— إنه لما يفخر به الإنسان أن يكون له ابن كهذا

وامتلأت عيناى بالدموع : دموع السعادة والشكر

وأولمنا وليمة عشاء احتفالاً بنجاح كريستوف الذى كان أشد المجتمعين ابتهاجاً . ولكن بعد أن انصرف المدعوون وجدته واقفاً وحده فى الغرفة التى لفظت فيها جانيت أنفاسها الأخيرة . وكانت عيناه مبللتين بالدموع

فلما رآنى أمسك بيدى وقال :

— تعالى معى يا أمى غداً إلى القبرة ، فإنى أريد أن أضع زهوراً ندية على قبر جانيت ، فأنت تعلمين أنها كانت دائماً تحب الأزهار ، وأنا أريد أن تشترك معنا فى احتفالنا

وعدنا من القبرة مثقلى القلب . وقال كريستوف متنهداً :

— لو أنها عاشت بضع سنوات أخرى ! نعم قد لا أكون قادراً على أن أعمل لها شيئاً كبيراً ولكننى كنت أستطيع على الأقل أن أسهل عليها الحياة وأجعلها أكثر احتمالاً ، على أننى سأمضى فى الدرس فإنى أريد أن أختص بعلاج الأطفال الضعفاء ، وسأكرس حياتى لهذا الغرض

وأبرقت عيناه وهو يقول :

— إننى حبا فى جانيت سأكرس حياتى لمساعدة الأطفال الضعفاء ، وإنى لأشعر أنها ستعرف ذلك وتفهمه على نوع ما

وفى أقل من خمس سنوات ارتفعت سمعة كريستوف وأصبح الدكتور كريستوف شلتون موضع احترام رصفائه وإعجابهم وموضع ثقة مرضاهم وشكرهم

وإنى لأعلم أن نجاح كريستوف يتصل اتصالاً شديداً بحبه الشديد لأخته . فإن روح البطولة التى تمثلت فيها قد أوحت إليه بأن يعنى بأمر الأطفال التعساء فدفعته بذلك إلى أن يصبح طبيباً ممتازاً فى تخفيف آلام الطفولة المعذبة

لقد ماتت طفلتى المريضة ، ولكن قصة حياتها القصيرة كانت أقوى من أية موعظة تلقى من على المنابر فى تقرير حق كل إنسان فى أن يعيش وسواء كانت الخيوط من التراب أم من الذهب وسواء أكانت خالصة أم معقدة ، فإن لكل نفس الحق فى أن تنسج حظها إلى أن تتم حياكة الثوب كله

عبد الحميد حمدى

ظهر حديثاً

فرعون الصغير

وقصص أخرى

تأليف الأستاذ

محمود تيمور

يطلب من مكاتب القطر الشهيرة

وثمن النسخة ٨ قروش